

الدرس الخامس والستون: الفتوحات الإسلامية كانت دليلاً على عظم

الإسلام

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلّ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد..

أحبتي في الله، جاء في الموسوعة العربية العالمية أن الفتوح الإسلامية جاءت لنشر الإسلام عن طريق الدعوة والقدوة أو عن طريق القتال لمن صدّ وأبى وأظهر العداوة. فطبيعة الإسلام تقتضي دخوله تلك الديار سلماً عن طريق الدعوة والقدوة الحسنة، فإذا رفض أصحاب تلك البلاد الإسلام والتعايش مع النظام الإسلامي؛ أمر الخليفة المسلمون بفتحها. ولقد تكثفت هذه الفتوح في عصر صدر الإسلام.

كان من أهداف هذه الفتوحات حماية الدعوة من عدوان خصومها، سواء أكانوا من عرب الجزيرة نفسها، أم من خارجها، كالفرس والروم.

توحّثت تلك الفتوحات أيضاً تخليص الشعوب من طغاتها الظالمين ومن أوضاعها الدينية والاجتماعية السيئة. وقضت على الحق الذي كان يزرعه الملوك والرؤساء لأنفسهم من أن مشيئتهم هي مشيئة الله وأن الخضوع لهم خضوع لله. فعندما سأل رستم قائد الفرس في معركة القادسية ربي بن عامر مبعوث سعد بن أبي وقاص إليه عن سبب مجيء المسلمين إلى العراق، قال ربي: «الله جاء بنا، وهو بعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه، فمن قبله قبلنا منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه، ومن أبى قاتلناه حتى نُفسي إلى الجنة، أو الظفر..»

وعندما سأله رستم إن كان هو زعيم المسلمين، فردّ بقوله: «لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد، بعضهم من بعض، يجير أدناهم على أعلاهم»، وتعجب رستم من كلامه.

أرادت الأمة الإسلامية أن تنقل مثلها التحريرية إلى الشعوب المضطهدة، تلك المثل التي نلمحها في قول واحد من عامة الناس لعمر بن الخطاب وعلى ملا من الناس، والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيفنا، وقيل مثل هذا لأبي بكر من قبل. وقال آخر لعمر: لا نسمع ولا نطيع، وذلك حين رأى عليه ثوباً لم يعلم مصدره، بل ظن أنه من مال الدولة، ولم يترفع عمر عن بيان مصدر ثوبه الثاني. ولو كان حكام المسلمين مثل حكام الروم لما أمر عمر بأن يقتصّ ابن قبطي مصري من ولد واليه على مصر عمرو بن العاص وفي ملا من الناس، وطلب من الغلام القبطي المظلوم أن يضرب عمراً على صلعته، لأن ابنه تجرأ على الظلم لمكانة والده، وخاطب عمراً بكلمات خالدة: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟. وكان الروم يسومون أهل مصر سوء العذاب، ولا يتجرأ أحد على رفع شكايته إلى رئيس الدولة.

ويعترف أحد المستشرقين وهو توماس آرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام): بأن القبائل النصرانية اعتنقت الإسلام عن اختيار وإرادة حرة، ويذكر أن النصارى كتبوا إلى المسلمين العرب يقولون لهم: يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أرأف بنا وأنف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا.

لقد كانت الفتوحات الإسلامية حروباً أخلاقية تقيدت بمبادئ الحق والعدالة والرحمة مع المغلوبين والمحاربين. وتمثل شيء من ذلك في عمر بن عبد العزيز فإنه حين ولى الخلافة، وفد عليه قوم من أهل سمرقند فرفعوا إليه أن قتيبة بن مسلم دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين بغير حق، فكتب عمر إلى عامله بأن ينصّب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا، فإن قضى بإخراج المسلمين، أخرجوا، فنصّب لهم جميع بن حاضر الباجي قاضياً، فحكم بإخراج المسلمين، على أن ينذرهم قائد الجيش الإسلامي بعد ذلك، وينابذهم وفقاً لمبادئ الحرب في الإسلام. ولكن أهل سمرقند كرهوا الحرب، وأقروا المسلمين للإقامة بين أظهرهم.

ولم يستغل الفاتحون سلطانهم لقهر الأمم التي غلبوها. وعندما رأى أهل الذمة وفاء المسلمين بعهودهم معهم وحسن سيرتهم فيهم، أصبحوا

عيونًا للمسلمين على أعدائهم. واعترفوا بالفارق بين الحضارتين الإسلامية والرومية، عندما أمر أبو عبيدة برد الجزية التي أخذها من أهل حمص حين أيقن بعجزه عن حمايتهم من الروم. ويقول المستشرق روبنسون: إن أتباع محمد وحدهم هم الذين جمعوا بين معاملة الأجانب بالحسنى، وبين محبتهم لنشر دينهم، وكان من أثر هذه المعاملة الحسنة أن انتشر الإسلام بسرعة، وعلا قدر رجاله الفاتحين بين الأمم المغلوبة، وأدت هذه المعاملة إلى انحسار ظل النصرانية عن شمالي إفريقيا. ويقول دوابر: إن العرب عاملوا اليهود في الأندلس أحسن معاملة. وعندما طرد النصارى العرب من الأندلس لم يطبقوا إبقاء اليهود، فديروا لهم تهمًا، وأحرقوا عشرة آلاف يهودي في مدى عشر سنوات، واعترف البطريرك النسطوري إيشوياف الثالث إلى سيمون أسقف أردشير، بأن العرب لم يهاجموا العقيدة النصرانية، وأنهم يعطفون على دينهم، ويكرمون قديسيهم، ويساعدون الكنائس والأديرة.

كما كانت الفتوحات الإسلامية أيضًا حروبًا تهدف إلى نشر الدين الإسلامي بالحسنى، ومن منطلق سامٍ، بعيدًا عن الماديات، وذلك بدلالة ما وقع في أحداث الفتح الإسلامي من قضايا التعفّف عند الغنيمة وأداء الأمانات والإخلاص لله ما يعجز التاريخ البشري عن إبراز نظائره. جاء في تاريخ الطبري أنه لما هبط المسلمون المدائن عاصمة الفرس وجمعوا الغنائم، أقبل رجل بحقّ معه، فدفعه إلى المسؤول عن حصر الغنائم. فقال الذين معه: ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه، فسألوه إن كان قد أخذ منه شيئًا، فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به، ورفض أن يفصح عن اسمه، حتى لا يُعرف فيُحمد، لأنه يريد حمد الله وثوابه، وليس حمد الناس. وأرسلوا وراءه رجلاً خلسةً ليعرفه، فعرفه من أصحابه، فإذا هو عامر بن عبد قيس رضي الله عنه.

ودخل عمر ذات يوم على أبي عبيدة أبرز قواد فتح الشام فلم ير في منزله إلا لبدًا (حشايًا من شعر أو صوف) وإناء وقربة ماء بالية، وسأله طعامًا، فأخرج له من سلة منشأة بالجلد صغيرة كُسّيرات، فبكى عمر وقال: غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة. والذي يقف على سيرة عمر

في الزهد يعرف دلالة عبارته لأبي عبيدة. وأرسل إليه عمر أربعمائة دينار، وسأل من أرسله أن يقف على ما يفعل بها، فجاءه الخبر بأنه وزعها كلها على المحتاجين، وأرسل مثلها إلى معاذ بن جبل، ☺، فوزعها إلا القليل منها، أعطاه زوجته لحاجتها. فقال عمر لما أخبر بهذا: الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا.

وعندما أرسل المقوقس حاكم مصر بعض رجاله ليتعرفوا له على أحوال الجيش الإسلامي الذي يحاصر حصن بابلين، عادوا ليقولوا له: رأينا قومًا الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة... ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة.

جلوسهم على التراب، وأميرهم كواحد منهم، ما يُعرف كبيرهم من صغيرهم، ولا السيد فيهم من العبد.

بهرت مثل هذه المواقف والأحوال بعض المنصفين من المستشرقين، بل يقول بعض متعصبيهم لغير الإسلام، وهو ستانلي في كتابه (العرب في أسبانيا): إنَّ حماس العرب للفتوح كان يؤجِّجه عنصر قوي من الرغبة في نشر الدين. وقد ذكرنا من قبل شهادة روبنسون من أن العرب كانوا يحبون نشر دينهم.(70).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

* * *